

الأقصوصة في الأدب العربي الحديث

بقلم الدكتور عبد العزيز عبد المجيد

بدء ظهور الصحافة أكثر نشاطاً وأجرأ على اقتباس الأفكار الأوروبية أو تقليدها . ولما انتقلوا الى مصر في أواخر القرن الماضي نقلوا معهم نشاطهم وجرأتهم الصحافية ، ووجدوا في وطنهم الجديد جواً مشجعاً على الاستمرار في الانتاج الأدبي بصور مختلفة .

لم يكن لفن القصص في النصف الاول من القرن الماضي حظ يذكر . ولم تكن الاقصوصة قد ظهرت في الأدب العربي او عرفت . وربما كان من الممكن ان تنشأ الاقصوصة في الأدب العربي كنتاج للمقامة لو أن كتّاب المقامة تطوروا بها وتحرروا من اسلوب السجع العقيم ، الذي يتنافى مع أسلوب القصص الطلق السهل ، الأقرب إلى لغة الحديث منه إلى لغة التأليف المصطنعة ، ولو أنهم كذلك تناولوا فيما كتبوا من مقامات موضوعات واقعية واجتماعية حيوية . ومن الغريب ان كتاب المقامات في القرن الماضي - ومنهم من كان له نصيب وافر من الثقافة الغربية كأحمد فارس الشدياق وعبد الله فكري باشا - لم يتطوروا بها ولم يجددوا فيها فجنات تقليدياً هزلياً لمقامات البديع والحريري . وإذا فأقصوصة الأدب العربي الحديث لم تلدها المقامة العربية كما كان ذلك ممكناً . ولمعرفة مصدرها يجب ان نذكر كلمة عن مولدها في الآداب الغربية .

القصة بأنواعها - الطويلة والقصيرة ، الاخبارية الواقعية ، والخيالية الخرافية - قديمة في آداب العالم قدم الانسان نفسه . ولكن الاقصوصة بحجمها ، وقالبها الحديث ، ومعالجتها الموضوعات الاجتماعية الواقعية بطريقة تحليلية نفسية تكشف عن الحوافز الطبيعية التي وراء السلوك البشري ، وتركيبية فنية فيها وصف بمثل لمظاهر السلوك وملابساته ، وعرضٌ للجو الذي تنشأ فيه الحوادث بصورة يظهر فيها التفاعل بين الشخصيات المختلفة التي في القصة ، أو سلوك الشخصية الواحدة وما يحيط بها او يجول في داخلها من عوامل مؤثرة - هذه الأقصوصة من مواليد القرن التاسع في الآداب الغربية . إنها

يجد قارئ الصحف العربية في عصرنا الحاضر أقاصيص منشورة في الجرائد اليومية والمجلات الأسبوعية أو الشهرية . ويلفت نظره ان هذا الفن من فنون الأدب العربي قد نما في السنوات الأخيرة نمواً واضحاً . واحتل مكاناً هاماً عند كتاب الأدب وقرائه . فظهر عدد من الكتّاب لا بأس بهم حاولوا بنجاح كتابة الأقصوصة . وأقبل القراء على هذا النوع من الأدب يجدون فيه تسلية وجمالاً وثقناً . فكيف نشأ فن الأقصوصة في الأدب العربي ؟

مر الأدب العربي أثناء العصر العثماني بطور من الاضمحلال الشامل ، طور يتميز بجذب في الخيال والابتكار ، وطريقة العرض ، وتفاهة الافكار والموضوعات ، وبركاسة الاساليب . ولم يطلع فجر القرن التاسع عشر حتى كانت الحضارة المادية الأوروبية ، والثقافة الادبية والعلمية ، قد غزت طلائعها بعض المدن العربية كبيروت ودمشق والاسكندرية والقاهرة ، لاسيا بعد حملة نابوليون التي ايقظت المجتمع العربي من سباته . ومنذ اوائل القرن الماضي بدأت بعض الدول العربية - لاسيا مصر وسوريا - تقتبس رويداً ما يناسبها من أساليب الحياة والتفكير في الغرب . فظهرت مثلاً معاهد اوروية في بيروت ككلية القديس يوسف والكلية الاميركية التي صارت فيما بعد جامعة . وأرسلت البعثات من الطلبة العرب إلى أوروبا للتخصص في شتى العلوم والفنون . وأدخلت الطباعة ، وظهرت الصحف ، واقتُبست بعض نظم التعليم الغربية . وزاد يوماً بعد يوم تأثير الحضارة والثقافة الغربية في الحياة العربية وأساليب التفكير والتعبير . ولا يزال هذا الاثر قوياً واضحاً وإن اختلفت قوته من أمة عربية إلى أخرى . وكان لهذا الاتصال بين العقل العربي والعقل الغربي أثر في الأدب العربي : موضوعاته ، وفنونه ، وطريقة عرضه ، وأسلوبه . والذي يهمننا هنا هو أثر هذا الاتصال في نشأة الأقصوصة العربية وتطورها .

ظهرت الصحف في مصر وسوريا - وكان السوربون في

ليست مجرد حكاية تُسرد للتسلية ، أو سلسلة حوادث وأخبار واقعية تعرض واحدة بعد الأخرى ، كما وقعت ، للعظة والتهديب ، ولكنها قطعة من الأدب تصور جزءاً من الحياة الواقعية في ترتيب يخلقه الأديب الفنان بخياله ، ليرز ظاهرة أو ظواهر خاصة ، أو ليحلل حادثة أو شخصية ، بأسلوب يفهمه القارئ العادي ، وفي حجم يمكن من قراءتها في جلسة واحدة .

ويقول مؤرخو الآداب الغربية إن أول من كتب هذا النوع الجديد من الأدب ، أي الأقصوصة ، هو الكاتب الروسي نيكولايف جوجول الذي عاش من سنة ١٨٠٩ إلى ١٨٥٢ . وإليه يعزى الفضل في أنه خلق من وقائع الحياة اليومية العادية ، ومن سلوك الشعب الساذج المبني على الحرافات والأوهام أحياناً ، وبما يجري من الحوادث التافهة في المصنع والمزرعة والسوق والمنزل ، أدباً تصويرياً حياً يشف عن البواعث النفسية والغرائز والوجدانات التي تضبط السلوك ، وذلك في أسلوب قصصي ، وفي قالب القصة القصيرة . ومن غريب المصادفات أنه بينما كان جوجول يكتب أقاصيصه هذه كان الكاتب الأمريكي إدجار آلان پو المعاصر له ، والذي عاش من سنة ١٨٠٩ إلى ١٨٤٩ ، قد اهتدى إلى هذا الفن نفسه . وصار ينشر أقاصيص بالانجليزية تتوافر فيها العناصر الفنية الأدبية التي اشرنا إليها . دون أن يكون بين الكاتبين صلة أدبية أو اتفاق على إنشاء هذا الفن . وكان پو ناقداً ادبياً كذلك ، فنشر عدداً من المقالات في أدب الأقصوصة ، وما يجب ان يتوافر فيها . ونقد ما ظهر في أيامه من أقاصيص غير محكمة الصياغة . ومن روسيا وأمريكا انتقل فنّ إنشاء الأقصوصة إلى فرنسا ، فظهر كتاب برزوا في كتابتها أمثال موياسان وفلوير . ومن فرنسا وأمريكا انتقل الفن إلى إنجلترا فظهر كيبينج وآرثر كونان دويل صاحب مخاطرات شرلوك هولمز وغيرهم . وقد وجد كتاب الأقصوصة منبراً ينشرون منه فنهم في المجلات والصحف . فاحتلت الأقصوصة مكاناً فيها ، لا يتيسر عادة للقصة الطويلة أي الرواية . وبذلك صارت الأقصوصة فناً أدبياً في متناول كل قارئ للصحف . ووجدت من القراء إقبالاً عظيماً .

فاذا ما نظرنا إلى الصحافة العربية غير الرسمية وجدنا في مقدمتها « الجنان » التي ظهرت في بيروت سنة ١٨٧٠ . وكان

رئيس تحريرها بطرس البستاني . وكانت أول صحيفة نشرت الأقصوصة الحديثة باللغة العربية . فقد كان سليم البستاني ابن بطرس كاتباً نشيطاً في الأدب والاجتماع . وكان يعرف عدداً من اللغات الأوروبية . وكانت الصحافة العربية تحذو حذو الصحافة الغربية . لذلك لأغرابة أن نجد سليماً البستاني ينشر أقاصيص ابتداء من سنة ١٨٧٠ ، بعضها من إنشائه وبعضها مترجم . واستمرت « الجنان » تنشر الأقاصيص المترجمة عن الفرنسية والانجليزية والاطالية إلى أن اختفت سنة ١٨٧٨ . غير ان صحفاً ومجلات أخرى أخذت منذ ذلك الوقت تنشر كذلك أقاصيص أغلبها مترجم . وذلك كمجلة الضياء ، وفنارة الشرق ، والراوي ، وحديقة الأدب . وأخذ قراء العربية يألفون هذا النوع الجديد من الأدب بالرغم من ظهور معارضين لأدب الأقصوصة الواقعية أو الخيالية التي لم تحتو على مغزى خلقي تهذيبي . وإذا فقد ظهرت الأقصوصة في الادب العربي نتيجة لتأثير الادب الغربي . ونمت وتأسلت في أدبنا حتى صارت أحد فنونه الحديثة . والذي يدرس تاريخ الأقصوصة في الادب العربي الحديث يستطيع أن يتبين أنها مرت بثلاث مراحل :

المرحلة الاولى من سنة ١٨٧٠ إلى قيام الحرب العالمية الاولى تقريباً : وهذه المرحلة تتميز بكثرة ما ترجم من اللغات الأوروبية إلى اللغة العربية من الأقاصيص وقلة المنشأ الأصيل . نعم حاول الأقصوصة بعض الكتاب أمثال جبران خليل جبران ومصطفى لطفى المنفلوطي ، ولكن إنتاجهم منها كانت تعوزه بعض العناصر الفنية الهامة في الموضوع والأسلوب وطريقة العرض مما لا مجال لذكره هنا . وتتميز هذه المرحلة كذلك بإقبال القراء على الأقاصيص المترجمة إقبالاً مشجعاً ، بالرغم من عدم الدقة أو الأمانة في الترجمة أحياناً . ومع هذا وجدت الأقصوصة في الأدب العربي وطناً جديداً غير وطنها الغربي . ويمكن أن تسمى هذه المرحلة في تاريخ الأقصوصة مرحلة الترجمة .

والمرحلة الثانية تبدأ بالحرب العالمية الأولى وتنتهي في سنة ١٩٢٥ تقريباً : وفي هذه المرحلة حاول بعض الأدباء أمثال ميخائيل نعيمة ، ومحمد تيمور ، وعيسى عبيد ، وطاهر لاشين أن ينشئوا أقصوصة محلية الحوادث ، عربية الجو ، تعرض

التتمة في الصفحة ٧٩

عما أنجزوه في أكثر نواحي النشاط البشري ولم يبق إلا إصرارهم على اتخاذ الحرية مبدأً وشعاراً لكان هذا المبدأ الذي يعتبر إحدى الخطوات الكبرى في سبيل التقدم البشري كافيًا لأن يسمو بهم إلى أرفع مراتب المصلحين من بني الإنسان ...

٢ - يقول الدكتور: ويبدو أن أهم عامل ساعد اليونانيين على التحرر الفكري هو أنهم لما برزوا فجأة على مسارح التاريخ لم يكن لديهم كتب مقدسة ...

ص ١٧ من حرية الفكر « فأن الاغريق شاء لهم حسن حظهم ألا يكون عندهم إنجيل .. وهذه الحقيقة هي مظهر حريتهم وسببها البارز الكبير .. »

٣ - يقول الدكتور: « إذا رجعنا إلى مباحث اليونانيين في الفلسفة ودراساتهم التاريخية ورواياتهم التمثيلية نراها تتعرض إلى كافة العقائد الدينية والمشاكل السياسية والقواعد الأخلاقية دون تفریق .. وتعالجها بمنتهى الصراحة

فتناقشها وتنتقدتها ... »

ص ١٥ من حرية الفكر: « توصل الاغريق إلى مرتبة النظر إلى الحياة نظرة حرة ناقدة وصارت إليهم الشجاعة

صدر اليوم

العدد الجديد

رقم ٢٠

من

كتاب الأهوال

ليلة موحشة

ميكي سيلين

مكتبة المعارف في بيروت

الثن . ه . ق . ل

والارادة التي تمكنوا بها من رفع كل قيد يحول دون النقد ودون المعرفة والاستطلاع .. »

٤ - يقول الدكتور: « فالذين اتهموا

(آنا كساغوراس) مثلاً بالخروج على العقائد الدينية إنما كانوا بعض خصوم

(بركليس) السياسية وقد عجزوا عن مهاجمة زعيم (أثينا) مباشرة فأرادوا

تشويه سمعته بمحاكمة صديقه الفيلسوف .. » ص ١٩ حرية الفكر: « وتلقف أعداء

(بركليس) السياسيون هذه الفرصة فجعلوا يهاجمون الفيلسوف وهم يقصدون

(بركليس ..) . وقد يكون الافتراض الرابع

شاهدًا تاريخيًا حادًا معروفًا لكل باحث أو مطّلع .. ولكن رأياً

يذكر في كتاب .. ثم يُؤخذ عنه مباشرة بلا سوق إشارة واحدة للمصدر

إنما يُعدّ ..!! ولا يستطيع ان اتكلم حتى اقرأ دفاع الدكتور .

القاهرة محي الدين محمد

جمعة ... » و « الشيخ سيد العبيط ... » وتناولتها الصحافة العربية بالنقد والتقرير، وتناولها المستشرقون - مثل كراتشكفسكي وكامفماير وجب - بالنقد والتقرير أيضاً .

وقالوا إن المؤلف كان أول كاتب عربي وفّق في معالجة هذا الفن الجديد . ومن ذلك الحين ينشر محمود تيمور أقاصيص

بمنازلة لا تقل في فنيتها عن أقاصيص كتاب الغرب المشهورين . وظهر بين الأدباء كتاب آخرون للأقصوصة مثل ميخائيل

نعيمة ، وتوفيق الحكيم ، وسعيد عبده ، وتوفيق عواد ، وعبد الملك نوري ، ووداد السكاكيني بصر وسوريا ولبنان

والعراق . وتأقلم فن الأقصوصة فصار أحد فنون الأدب العربي الحديث . وبالزعم من ذلك ما زالت الأقصوصة في

مرحلة النمو .

عبد العزيز عبد المجيد

جامعة مانشستر

الأقصوصة في الأدب العربي الحديث

التتمة من الصفحة ٢٧

للحياة الواقعية في صورة خيالية حية ، وتكشف عن البواعث النفسية لسلوك البشري ، متأثرين في محاولتهم بالأقصوصة الغربية ومقوماتها الفنية . ونجحوا في محاولتهم نجاحاً لا بأس به . ولكن إنتاجهم في هذه المرحلة الثانية كان قليلاً محدوداً . ولهؤلاء أمثالهم يرجع الفضل في تمهيد السبيل لانشاء الأقصوصة العربية المحلية . ويمكن أن تسمى هذه المرحلة مرحلة المحاولة .

والمرحلة الثالثة تبدأ من سنة ١٩٢٥ وتستمر إلى وقتنا الحاضر : ففي تلك السنة شهد القراء مولد الأقصوصة العربية حينما نشر محمود تيمور مجموعتين من أقاصيصه هما « الشيخ